# من شواهد الإعجاز البياني
# في القرآن الكريم

«الحلقة الثانية»

آيات بينات من سـورة

## «المؤمنون»

بقلم

الأستاذ الدكتور

عبدالله حسين علي سليمان

## مقدمة :

«المؤمنون» هذه السورة هى سورة الإيمان بكل قضاياه ودلائله وصفات المتصفين به ، فهو موضوع السورة ومحورها الأصيل يتمشى معها فى جو من البيان والتقرير والجدل الهادئ والمنطق الوجدانى واللمسات الموقظة للفكر والضمير .. ففى مطلع السورة بدء ببيان صفات المؤمنين الذين كتب لهم الفلاح ، وتثنيته بدلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق ، ثم انتقال إلى حقيقة الإيمان الواحدة التى توافق عليها الرسل دون استثناء ، فهم جميعاً مرسلون من الله ومكلفون بتبليغ رسالته إلى الناس أن يعبدوه وحده ولايشركوا به شيئاً .. ثم تتحدث الآيات عن تفرق الناس بعد الرسل ، وتنازعهم حول حقيقة الإيمان الواحدة التى لاجدال فيها ، وغفلتهم عن ابتلاء الله لهم بالنعمة واغترارهم بماهم فيه من متاع بينما المؤمنون مشفقون من خشية ربهم .. وتتوجه الآيات بالخطاب إلى رسول الله أن يصبر على أذى قومه فلايغضب ولايضيق صدره ولايحزن لكفرهم وعنادهم وانصرافهم عن الحق وتشبثهم بالباطل ... وتختم السورة بتنزيه الله سبحانه وتعالى وتفرده بالألوهية والربوبية والقدسية ، ونفى الفلاح عن الكافرين فى مقابل تقرير الفلاح للمؤمنين فى أول السورة ، ثم التوجه إليه سبحانه طلباً للرحمة والغفران وهذه السورة «مكية» كما أخرج ابن (مَرْدَوَيه) عن ابن عباس رضى الله عنهما . وفى «البحر المحيط» هى مكية بلا خلاف .

ومناسبتها لآخر السورة قبلها (وهي سورة الحج) ظاهرة لأنه تبارك وتعالى خاطب المؤمنين في نهاية سورة الحج بقوله سبحانه «**يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون**» وذلك على سبيل التوجية بالفلاح فناسب ذلك قوله «قد أفلح المؤمنون» إخبار بحصول ماكانوا قد رجوه من الفلاح ، وذلك لأن الترجي ليس في حق الله وإنما هو حق البشر .

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال : كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : «اللهم زدنا ولاتنقصنا ، وأكرمنا ولاتُهِنَّا ، وأعطنا ولاتحرمنا ، وآثرنا ولاتؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا » ثم قال «لقد أنزل علىّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة» ثم قرأ «قد أفلح المؤمنون» حتى ختم العشر (أخرجه الإمام أحمد والترمذى والنسائى) . وقال النسائى في تفسيره عن يزيد بن بابنوس قال : قلنا لعائشة أم المؤمنين كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن ، فقرأت «قد أفلح المؤمنون» حتى انتهت إلى «والذين هم على صلواتهم يحافظون» قال هكذا كان خلق رسول الله ﷺ .»

## الآيـــات :

بسم الله الرحمن الرحيم

**قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون * الذِين هُمْ فِي صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلاَّ علي أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ***

## الشرح والتفسير:

«قد» حرف تأكيد وتحقيق كما فى هذه الآية ، وتأتى للتقليل كقولهم : قد يجود البخيل ، وقد يفوز الجبان أى على سبيل القلة ، أى قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح وثمرات الجهود وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف المذكورة بعد...

والفلاح : الفوز بالمرام ، والظفر بثمرة الجهد المبذول ، وقيل : البقاء فى الخير

والظفر بالمراد ، والإفلاح: الدخول في ذلك .. وقد يجئ متعدياً ، وعليه قراءة طلحة بن مصرف وعمرو بن عبيد «قد أُفلح» بالبناء للمفعول ومعناه : أدخلوا في الفلاح ، وقرأ طلحة أيضاً بفتح الهمزة واللام وضم الحاء (قد أفلحوا) مع إلقاء واو الجمع على لغة «أكلوني البراغيث» أو على الإبهام والتفسير كما قال الزمخشري بمعنى أنه أبهم في قوله «أفلحوا» ثم فسر هذا المبهم بقوله «المؤمنون» وإثبات الواو في الرسم مروى عن كتاب ابن خالوية ، وفي اللوامح أنها حذفت في الدرج لالتقاء الساكنين وحملت الكتابة على ذلك فهي محذوفة فيها أيضاً ، وقرئ عن طلحة أيضاً «أفلحُ» بضمة الحاء بغير واو اكتفاء بالضمة عن الواو ونظيرها عند الزمخشري قول الشاعر :

فلو أن الأطبا كانُ حولي وكان مع الأطباء الأساة

فالأصل : كانوا حولي فقصره وقصر الأطباء في الشطر الأول لضرورة الوزن . ويرى أبوحيان أن هذا ليس من النظائر لأن الواو في أفلحُ حذفت لالتقاء الساكنين أما في البيت فالحذف للضرورة .

وقرأ (ورش) عن نافع (قدَ افْلح) بإلقاء حركة الهمزة على الدال وحذفها لفظا لالتقاء الساكنين كما قال أبو البقاء .

و(قَدْ) هنا لثبوت أمر متوقع وتحققه وهو الفلاح إذ أنه متوقع الثبوت من حال المؤمنين ، وجعله الزمخشري الإخبار بثباته ودوامه وذلك لأن الفلاح مستقبل أبرز في معرض الماضي مؤكدا بقد دلالة على تحققه فيفيد تحقق البشارة وثباتها كأنه

قيل : قد تحقق أن المؤمنين من أهل الفلاح في الآخرة، وجوز أن يكون جملة )قد أفلح) جواب قسم محذوف ، والمراد بالمؤمنين إما المصدقون بما علم ضرورة أنه من دين نبينا ﷺ من التوحيد والنبوة والحشر والجزاء ونظائرها وعلى ذلك فيكون قوله تعالى : «**الذين هم في صلاتهم خاشعون**» وماعطف عليه صفات مخصصة لهم ...

وإما أن يكون الآتون بفروعه أيضا مرادا مع التصديق كما ينبئ عنه إضافة الصلاة إليهم ، وعلى ذلك فهي صفات موضحة أو مادحة لهم .. والزمخشري يجعل الإضافة في قوله تعالى : «صلاتهم» للإشارة إلى أنهم هم المنتفعون بالصلاة دون المصلّى له عزوجل ، ومعلوم أن المؤمن الحق لايكتمل إيمانه إلا إذا تحلى بهذه الصفات وأن هذه الصفات لاتتحقق إلا إذا كان الإيمان عميقاً راسخاً متمكنا في قلب المؤمن ولذا كان الفلاح محققاً لهؤلاء المؤمنين المتصفين بهذه الصفات .

والخشوع : الخضوع والتذلل والسكون ، وهو الجامع للمراقبة القلبية والتذلل بالأفعال البدنية وسكون الجوارح ، ولذا قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن جرير وغيره : خاشعون خائفون ساكنون . وعن مجاهد أنه هنا غض البصر وخفض الجناح ، وقال مسلم بن يسار وقتادة : تنكيس الرأس ، وعن علي كرم الله وجهه : ترك الالتفات ، وقال الضحاك : وضع اليمين على الشمال ، وعن أبي الدرداء

: إعظام المقام ، وإخلاص امقال واليقين التام ، وجمع الاهتمام ، ويتبع ذلك ترك الالتفات وهو من الشيطان ؛ فقد روى البخارى وأبو داود والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات فى الصلاة ، فقال : هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد» وأخرج ابن أبى شيبة ، عن أبى هريرة أنه قال فى مرضه : «أقعدونى ، أقْعدونى فإن عندى وديعة أودعنيها رسول الله ﷺ قال : لايلتفت أحدكم فى صلاته ، فإن كان لابد فاعلا ففى غير ما افترض الله تعالى عليه» .. وقد أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه رأى رجلاً يعبث بلحيته فى صلاته فقال : «لوخشع قلب هذا خشعت جوارحه» ومن الخشوع ترك رفع البصر إلى السماء وان كان المصلى أعمى ، وقد جاء النهى عنه فقد أخرج مسلم وأبوداود وابن ماجه عن جابر بن سمرة قال : قال النبى ﷺ «لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة أو لاترجع إليهم» وكان قبل نزول الآية غير منهى عنه .

وقد أخرج الحكيم الترمذى من طريق القاسم بن محمد عن أسماء بنت أبى بكر عن أم رومان والدة عائشة رضى الله عنها قالت : رآنى أبوبكر رضى الله تعالى عنه أتميّل فى صلاتى فزجرنى زجرة كدت أنصرف عن صلاتى ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إذا قام أحدكم فى الصلاة فليسكن أطرافه لايتميل تميل اليهود فإن سكون الأطراف فى

الصلاة من تمام الصلاة» . وفي تفسير ابن كثير أن الخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها ، واشتغل بها عما عداها ، وآثرها على غيرها وحينئذ تكون راحة له وقرةعين كما قال النبي ﷺ : «حبِّب إلى الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» أخرجه الإمام أحمد والنسائي عن أنس بن مالك مرفوعا ، وكان رسول الله ﷺ يقول : «يابلال أرحنا بالصلاة» أخرجه الإمام أحمدفي مسنده .

وفي البحر نقلاً عن التحرير أنه اختلف في الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها ومكملاتها على قولين وفي البحر المحيط أن الصحيح القول الأول وفي روح المعاني الصحيح القول الثاني ، وأرى أنه بالتأمل والتدبر في معنى الصلاة وحكمتها وتحقق آثارها يمكننا أن نتأكد من أن الخشوع والخشية ومراقبة الله عز وجل في الصلاة أمور أساسية تشكل روح الصلاة وجوهرها ويؤيدها قول الحق تبارك وتعالى «**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ...**» وقول المصطفى ﷺ «**من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة ...**» وهذا الخشوع المتمثل في استغراق العبد في صلاته بفكره وقلبه وذكره وحركاته وسكناته وترفعه عن شواغل دنياه وهموم الحياة يؤكده قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» ويشير إليه شعار «**الله أكبر**» الذي بدأ به العبد صلاته فالله هو

الأكبر من كل شئ والله هو الذى ينبغي أن يكون الشغل الشاغل للعبد المصلى الواقف بين يديه يتهل إليه ويناجيه ويتوجه إليه وحده بالعبادة والاستعانة وطلب الهداية إلى صراطه المستقيم ، وتقديم الجار والمجرور فى قوله «**في صلاتهم خاشعون**» للحصر على معنى الذين هم فى جميع صلاتهم دون بعضها خاشعون ، ولتقريب ذكر الصلاة من ذكر الإيمان فإنهما أخوان ، وقد جاء إطلاق الإيمان عليها فى قوله تعالى : «**وما كان الله ليضيع إيمانكم**» وأخيرا تكون رعاية الفواصل شيئاً طبيعياً لايقصد لذاته فى مجال بلاغة القرآن وإعجازه البياني العظيم .

وفى تقديم وصفهم بالخشوع فى الصلاة على سائر الأوصاف تنويه بشأن الخشوع وإعلاء لأمره ، وقد ورد مايفيد أن أول مايرفع من الناس الخشوع ففى خبر رواه الحاكم وصححه أن عبادة بن الصامت قال : «يوشك أن تدخل المسجد فلاترى فيه رجلاً خاشعاً» وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد والحاكم وصححه عن حذيفة قال : «أول ماتفقدون من دينكم الخشوع ، وآخر ماتفقدون من دينكم الصلاة ، وتُنقض عُرى الإسلام عروةَ عروة»

والتعبيرباسم الفاعل فى قوله «خاشعون» فيه إشارة إلى حدوث الخشوع وتجدده مع الدخول فى كل صلاة ، وأن هذا الخشوع المتجدد من شأنه أن يغرس صفة الخشية والورع فى نفس العبد المؤمن بحيث تصبح صفة ملازمة له

في سائر أوقاته وفي كافة أحواله وتلك مرتبة عليا تطمح إليها نفوس المؤمنين» «والذين هم عن اللَّغو معرضون» اللغو واللَّغا كالفتى : السقط ومالا يعتد به من كلام وغيره ، ومالا يصدر منه عن روية وفكر ، واللغاء : صوت العصافير ونحوها من الطير.. وفي الصحاح للجوهري : لغا يلغو لغوا أي قال باطلا . واللغو مالا يعتد به من الأقوال والأفعال ، وعن ابن عباس أنه فسره بالباطل ، وابن كثير يفسر اللغو بما يشمل الشرك والمعاصي ومالا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ، وعلى هذا فكل باطل لغو بما في ذلك كل هزل بعيد عن الجد ، ويحدد الزمخشري اللغو بما لايعنيك من قول أو فعل ، وماتوجب المروءة إلغاءه واطراحه ، وقد يسمى كل كلام قبيح لغوا ،، وقد جاء في وصف عباد الرحمن قوله تعالى : «وإذا مرُّوا باللَّغو مرُّوا كراما» والمؤمنون هنا في الآية التي معنا معرضون عن اللغو في عامة أوقاتهم لما فيه من الحالة الداعية إلى الإعراض عنه مع مافيهم من الاشتغال بما يعنيهم .

واللغو يطمس نور الإيمان ، ويصرف المرء عن حق الله عز وجل ، وينحرف به عن جادة الصواب والالتزام بطريق الله المستقيم .

وإذا كان الأمر بالخشوع يقتضي انصراف المرء إلى الله دون ما سواه فإن الإعراض عن اللغو ثمرة هذا الخشوع وتأكيد لفعاليته في القول والفعل والتصرف والسلوك والتعبير القرآني أبلغ من أن يقال:والذين لايلهون من وجوه :

الجملة الأسمية المحضة الدالة على الثبات والدوام ، وتقديم الضمير المفيد لتقوى الحكم بتكريره ، والإتيان بالمسند اسما دالا على الثبات ، وتقديم الظرف عليه المفيد للحصر ، وإقامة الإعراض مقام الترك ليدل على تباعدهم عن اللغو وانصرافهم عنه ونفورهم منه بتوجه نفسى مباشر وهذا أدخل فى مجال عمق الإيمان وقوة اليقين وعلو الهمة ورقة الشعور والإحساس .

«**والذين هم للزكاة فاعلون**» الأكثرون على أن المراد بالزكاة ههنا زكاة الأموال مع أن الآية مكية ، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة فى سنة اثنين من الهجرة ، والظاهر أن أصل الزكاة كان واجبا بمكة قال تعالى فى سورة الأنعام وهى مكية «**وآتُوا حقَّه يومَ حَصاده**» .

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا زكاة النفس من الشرك والدنس كقوله تعالى «**قد أَفْلح من زكّاها وقد خَابَ من دسّاها**» .

وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال ، فإنه من جملة زكاة النفوس .

وفى «روح المعانى» أن المراد بالزكاة المعنى المصدرى أى التزكية لأنه الذى يتعلق به فعلهم ، وأما المعنى الثانى وهو القدر الذى يخرجه المزكى فلا يكون نفسه مفعولا لهم فلابد إذا أريد من تقدير مضاف أى لأداء الزكاة فاعلون ، أو تضمين (فاعلون) معنى (مؤدون) وبذلك فسره الثبريزى . إلا أنهم أوردوا عليه أنه

لايقال «فعلت الزكاة» أى أديتها .

وإذا أريد المعنى الأول أدّى وصفهم بفعل التزكية إلى أداء العين بطريق الكناية التى هى أبلغ ، وعن أبى مسلم أن الزكاة هنا بمعنى العمل الصالح كما فى قوله تعالى : «**فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رُحما**» واختار الراغب أن تكون الزكاة بمعنى الطهارة واللام للتعليل والمعنى : والذين يفعلون مايفعلون من العبادة ليزكهيم الله تعالى أو ليزكوا أنفسهم ويرى صاحب الكشف أن معنى الآية : الذين هم لأجل الطهارة وتزكية النفس فاعلون الخير ، ويرشد إلى ذلك قوله تعالى : «**قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى**» و «**قد أفلح من زكاها**» فإن القرآن يفسر بعضه بعضا .

وقيل إن اقتران هذا الوصف بالصلاة يدل على أن المراد وصفهم بأداء الزكاة الذى هو عبادة مالية ، وأن تنظير مانحن فيه بالآيتين بعيد لأنهما ليستا من هذا القبيل فى شئ ، قال الألوسى : وربما يقال إن الفصل بينهما (أى بين الصلاة والزكاة باللغو) يشعر بما اختاره الراغب ومن حذا حذوه ، وأيضاً كون السورة مكية والزكاة فرضت بالمدينة يؤيده لئلا يحتاج إلى التأويل بما مر .

ويرى أهل البصيرة أن التعبير بقوله تعالى «**فاعلون**» فى أعلى مراتب البلاغة وسحر البيان لأن الأداء لايجب إلا إذا كان هناك مال تجب فيه الزكاة ، ولامال بغير عمل وفعل وكأنه سبحانه وتعالى قال : والذين هم من أجل الزكاة

وأدائها يعملون ويفعلون حتى يحققوا الأموال التى تجب فيها الزكاة ويكون بمقدروهم أداؤها ، وفى ذلك حث بالغ على العمل والكسب والسعى حتى يخرج العبد المؤمن من زمرة المتلقين للزكاة إلى الجماعة القادرة المؤدية للزكاة ... وهذا مايهدف إليه الإسلام ، ولنذكر هذه الفترة الوضاءة المشرقة من تاريخ أمتنا الإسلامية التى كان يبحث فيها عن الفقير المستحق للزكاة فلايكاد يعثر عليه طالب ـ يقول صاحب البحر المحيط : «وقيل الزكاة هنا النماء والزيادة واللام لام العلة ومعمول فاعلون محذوف والتقدير : والذين هم لأجل تحصيل النماء والزيادة فاعلون الخير» ولو أنه قال : فاعلون متحركون عاملون لكان أفضل وأقوى .

ويقول صاحب الظلال : «والزكاة طهارة للقلب والمال ، طهارة للقلب من الشح ، واستعلاء على حب الذات ، وانتصار على وسوسة الشيطان بالفقر ، وثقة بما عند الله من العوض والجزاء ، وطهارة للمال تجعل مابقى منه بعدها طيباً حلالا لايتعلق به حق ـ إلا فى حالات الضرورة ـ ولاتحوم حوله شبهة ، وهى صيانة للجماعة من الخلل الذى ينشئه العوز فى جانب والترف فى جانب فهى تأمين اجتماعى للأفراد جميعاً ، وهى ضمان اجتماعى للعاجزين ، وهى وقاية للجماعة كلها من التفكك والانحلال . »

**«والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما**

**ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون*»** أى والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلايقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط ونحوهما لا يقربون سوى أزواجهم اللاتى أحلهن الله لهم أو ما ملكت أيمانهم من السرارى ، ومن تعاطى ما أحلّ الله له فلالوم عليه ولاحرج ، ومن تطلع إلى ما وراء ذلك لتحقيق متعته وشهوته فهو من المعتدين المتجاوزين لحدود الله .

وهذه الآية وصف للمؤمنين بالعفة فى أدق وأوفى معانيها وأعنى به مجال شهوة الفرج التى هى من أقوى الشهوات ولذلك جاء التأكيد عليها من وجوه : اللام الداخلة على «فروجهم» وهى للتقوية والفروج : جمع فرج : العورة من الرجل أو المرأة والمقصود فى الآية عورة الرجل يحفظها المؤمن من الزنا وما شاكله . وتقديم الجار والمجرور على اسم الفاعل على سبيل اختصاص الفروج بالحفظ لما فيه من التصون والعفاف ودفع أسباب الفساد والانحلال ـ وتعديه الحفظ بـ «على» لتضمينه معنى «ممسكون» على ما اختاره أبوحيان والإمساك يتعدى بـ «على» كما فى قوله تعالى «أمسك عليك زوجك» ـ والاستثناء مع اعتبار معنى النفى المفهوم من الإمساك فكأنه قيل : حافظون فروجهم لايرسلونها على أحد إلا على أزواجهم ، وفى ذلك قصر بليغ لحصر جهة المتعة الحلال فى الأواج وملك اليمين . وقال الفراء ـ وتبعه ابن مالك وغيره ـ إن على هنا بمعنى «من» أى إلا من أزواجهم ، كما أن «من» تأتى بمعنى «على» كما فى قوله تعالى

: «ونصرناه من القوم» أى على القوم .

ومن بين الأقوال الكثيرة قول يرى أن «على» متعلقة بمحذوف يقع حالاً من ضمير «حافظون» والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أى حافظون لفروجهم فى جميع الأحوال إلا حال كونهم والين وقوامين على أزواجهم .

وقول يرى أنها متعلقة بمحذوف يدل عليه «غير ملومين» كأنه قيل : يُلامون إلا على أزواجهم أى يلامون على كل مباشر إلا على ما أطلق لهم فإنهم غير ملومين عليه . وقد ذكر الزمخشرى هذين القولين ، واعترض بأنهما متكلفان ظاهر فيهما العجمة . والمراد بقوله تعالى : «أو ما ملكت أيمانهم» : السريات أى الإناث من الجوارى ، لأن المملوك الذكر لايحل وطؤه ، وإن كان ملك يمين ، والتعبير عنهن بـ «ما» مع أنها مختصة بغير العقلاء لتنزيلهن منزلة المتاع والسلع التى يتصرف فيها بيعاً وشراء ، وليس كما ذكره الألوسى من أنهن لأنوثتهن المنبئة عن قلة عقولهن جاريات مجرى غير العقلاء لأن الارتباط غير لازم بين الأنوثة وقلة العقل ، كما أن الارتباط أيضاً غير لازم بين الذكورة وحصافة العقل ، وكم من الجوارى أصلهن بنات ملوك وأمراء صاحبات عقل وفكر وثقافة وفن وموهبة واقتدار وكل ماهنالك أنهن أسرن فى حروب أو اختطفن وشردتهن الأيام ، والتسرى خاص بالرجال ، أما للنساء فإنه لايجوز بالإجماع ، وعن قَتادة قال : تسرّت امرأة غلاما ، فذكرت لعمر رضى الله

تعالى عنه ، فسألها : ما حملك على هذا ؟ فقالت : كنت أرى أنه يحل لى مايحل للرجال من ملك اليمين . فاستشار عمر فيها أصحاب النبى ﷺ ، فقالوا : تأولت كتاب الله تعالى على غير تأويله ، فقال رضى الله عنه . لاجرم لا أحلك لحر بعده أبدا ، كأنه عاقبها بذلك ، ودرأ الحد عنها ـ للشبهة ـ وأمر العبد ألا يقربها ، ولو كانت المرأة متزوجة بعبد فملكته فأعتقته حالة الملك انفسخ النكاح عند فقهاء الأمصار ، وقال النخعى والشعبى وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة : يبقيان على تكاحهما ، وذكر الآمدى فى الأحكام أن عليا كرم الله وجهه احتج على جواز الجمع بين الأختين فى الملك بقوله تعالى (أو ما ملكت أيمانهم) . وانتصاب «وراء» على أنه مفعول (ابتغى) وقال بعض المحققين إن (وراء) ظرف لايصلح أن يكون مفعولا به وإنما هو ساد مسد المفعول به ولذا قال الزمخشرى : أى فمن أحدث ابتغاء وراء ذلك فأولئك هم العادون أى الكاملون فى العدوان المتناهون فيه كما ينبئ بذلك اسم الإشارة والتعريف وتوسيط الضمير المفيد لجعلهم جنس العادين أو جميعهم ، وما وراء ذلك يشمل الزنا واللواط ومواقعة البهائم بلاخلاف . ووقع الخلاف فى الجارية التى يباح للرجل وطؤها من قبيل مالكها باعتبارها ليست زوجة وليست ملك يمين وإنما هى معارة للجماع . أما الاستمناء باليد فقد ذهب الشافعى رحمه الله ومن وافقه على تحريمه بهذه الآية الكريمة ، ومنهم من استدل على تحريمه بقول الرسول «ناكح اليد ملعون» وعن سعيد بن جبير «عذب الله تعالى أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم» ، وعن عطاء

سمعت قوما يحشرون وأيديهم حبالى ، وأظن أنهم الذين يستمنون بأيديهم ، وفى البحر المحيط أن الإمام أحمد بن حنبل كان يجيز ذلك لأنه فضلة فى البدن فجاز إخراجها عند الحاجة كالفصد والحجامة وأن ماورد فى الآية الكريمة إنما خرج مخرج ماكانت العرب تفعله من الزنا والتفاخر بذلك فى أشعارها وكان ذلك كثيرا فيها بحيث كان فى بغاياهم صاحبات رايات ولم يكونوا ينكرون ذلك ، وأما «جلد عميرة» (الاستمناء) فلم يكن معهوداً فيها ولاذكره أحد منهم فى أشعارهم فيما علمناه ، فليس بمندرج فى قوله تعالى : «**فمن ابتغى وراء ذلك**» .

ووقع الاختلاف كذلك فى شأن «المتعة» وهى الزواج بالمرأة والاستمتاع بها لفترة محدودة ، فذهبت الشيعة إلى جوازها ، وقد ذكر فى الصحيحين أن النبى ﷺ حرّم المتعة يوم خيبر ، وفى صحيح مسلم أنه حرمها يوم الفتح ، ووفق ابن الهمام بين القولين بأنها حرمت مرتين مرة يوم خيبر ومرة يوم الفتح وذلك يقتضى أنها كانت حلالا قبل هذين اليومين ، وفى صحيح مسلم عنه عليه الصلاة والسلام «**كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء وقد حرم الله تعالى ذلك إلى يوم القيامة**» وأخرج الحازمى بسنده إلى جابر قال «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك حتى إذا كنا عند العقبة مما يلى الشام جاءت نسوة فذكرنا تمتعنا وهن يطفن فى رحالنا فجاء رسول الله ﷺ فنظر إليهن وقال : من هؤلاء النسوة ؟

فقلنا يارسول الله : نسوة نتمتعنا منهن ، فغضب رسول الله حتى احمرت وجنتاه وتمعّر وجهه ، وقام فينا خطيباً ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم نهى عن المتعة ، فتواد عنا يومئذ الرجال والنساء ولم نعد ولانعود إليها أبدا» .

وقد صح عند البعض رجوع ابن عباس رضى الله عنهما إلى القول بالحرمة بعد قوله بحلها مطلقا ، أو وقت الاضطرار إليها ، واستدل ابن الهمام على رجوعه بما رواه الترمذى عنه أنه قال : إنما كانت المتعة فى أول الإسلام كان الرجل يقدم البلد ليس له بها معرفة فيتزوج بقدر مايرى أنه مقيم فتحفظ له متاعه ، وتصلح له شأنه ، حتى إذا نزلت الآية «إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين» قال ابن عباس فكل فرج سواهما فهو حرام ، ويرى العلامة ابن حجر أن حكاية الرجوع عن ابن عباس لم تصح بل صح كما قال بعضهم عن جمع أنهم وافقوه فى الحل ، لكن خالفوه فى أنه لايترتب على ذلك أحكام النكاح ، ويفهم من هذا أن ابن عباس يدخل المستمتع بها فى الأزواج وحينئذ لاتقوم الآية دليلاً عليه .

ويرى صاحب «روح المعانى» أن نسبة القول بجواز المتعة إلى مالك رضى الله عنه هو افتراء عليه ، بل هو كغيره من الأئمة قائل بحرمتها بل إنه يوجب الحد على المستمتع ولم يوجبه غيره من القائلين بالحرمة لمكان الشبهة .

«والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون» أى إذا اؤتُمنوا لم

يخونوا بل يؤدون الأمانات إلى أهلها ، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك ، لاكصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ «آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان» والأمانات جمع أمانة وهي في الأصل مصدر لكن أريد بها هنا ما ائتمن عليه إذ الحفظ للعين لاللمعنى ، وكذلك العهد مصدر أريد به ماعوهد عليه . والآية عند أكثر المفسرين عامة في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الناس كالتكاليف الشرعية والأموال المودعة والأيمان والنذور والعقود ونحوها ، وإنما جمعت الأمانة دون العهد لأنها متنوعة متعددة جداً بالنسبة إلى كل مكلف من جهته تعالى ولايكاد يخلو مكلف من ذلك ، ولا كذلك العهد .

وجّوز بعض المفسرين أن يراد بالأمانات ما أئتمنهم الله تعالى عليه من الأعضاء والقوى ، ويكون المراد برعيها : حفظها عن التصرف بها على خلاف أمره عز وجل ، وأن يراد بالعهد : ماعاهدهم الله تعالى عليه مما أمرهم به سبحانه بكتابه وعلى لسان رسوله ، والمراد برعيه حفظه عن الإخلال به وذلك بفعله على أكمل وجه ، فحفظ الأمانات كالتخلية وحفظ العهد كالتحلية ، أي التخلي عن رذيلة خيانة الأمانة والتحلي بفضيلة حفظ العهد ، وكأنه جل وعلا بعد أن ذكر حفظهم لفروجهم ذكر حفظهم لما يشملها وغيرها ، ويجوز أن تعم الأمانات بحيث تشمل الأموال ونحوها ، وجمعها لما فيها من التعدد المحسوس المشاهد ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو في رواية (لأمانتهم) بالإفراد .

والرعاية بمفهومها اللغوى تقتضى الدراية والفهم وحسن التدبير إذ لاكمال للحفظ إلا بذلك ويعنى هذا أن يكون حفظ الأمانات والعهود بما يتأتى به فعلا الحفظ والرعاية والتدبير بما يتلاءم مع كل أمانة وكل عهد . وهنا أمور دقيقة لاتخفى على ذوى الفطن تمكنهم من الاهتداء إلى جهة الحفظ والرعاية التى يتحقق بها كمال الصلاح وتمام الرعاية .

«**والذين هم على صلواتهم يحافظون**» أى يواظبون عليها فى مواقيتها كما قال ابن مسعود **سألت رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : برُّ الوالدين . قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله** ، وقال قتادة : يحافظون على مواقيتها وركوعها وسجودها ، ويكون ذلك بإتمام الركوع والسجود وسائر حركاتها ومراعاة الخشوع فيها . وجئ بالفعل المضارع «**يحافظون**» دون الاسم كما فى سائر رءوس الآية السابقة لما فى الصلاة من التجدد والتكرير ، وقد وحدت الصلاة فى الآية السابقة «**الذين هم فى صلاتهم خاشعون**» لإفادة الخشوع فى جنس الصلاة أى صلاة كانت ، وجمعت فى الآية التى معنا لتفيد المحافظة على أعدادها ، وهى الصلوات الخمس والوتر والسنن المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنازة والاستسقاء والكسوف والخسوف وصلاة الضحى والتهجد وصلاة التسبيح وصلاة الحاجة

وغيرها من النوافل على قول الزمخشرى ... وليس ذلك كله بلازم فيما أرى ، وفى الفرائض والسنن المؤكدة كفاية .

وقد افتتح الله تعالى ذكر صفات المؤمنين الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة فدل ذلك على أفضليتها وتعظيم شأنها كما قال رسول الله ﷺ : «**استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولايحافظ على الوضوء إلا مؤمن**» . وقد قدم الوصف بالخشوع فى الصلاة على الوصف بالمحافظة على الصلوات للاهتمام به فإن الصلاة بدون خشوع كلا صلاة بالإجماع ... وقد قيل : صلاة بلا خشوع جسد بلا روح .

**«أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون*»**

الإشارة إلى المؤمنين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات ، وإيثار الإشارة على الإضمار للإشعار بامتيازهم بها عن غيرهم ونزولهم منزلة المشار إليهم حسا ولما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقتهم، وبعد درجتهم فى الفضل والشرف .

أولئك المنعوتون بهذه الصفات هم الأحقاء أن يسموا «وراثا» دون من عداهم ممن لم يتصف بتلك الصفات من المؤمنين أو ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمها ، وثبت فى الصحيحين : «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن» وقال

رسول الله ﷺ : «مامنكم من أحد إلا وله منزلان : منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى : «أولئك هم الوارثون» فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم أطاعوا ربهم عزّ وجلّ . بل أبلغ من هذا ماثبت فى صحيح مسلم عن النبى ﷺ قال : «إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقال : هذا فكاكك من النار» أخرجه مسلم عن أبى بردة عن أبيه مرفوعاً ، وقد استحلف عمر بن عبدالعزيز أبا بردة بالله الذى لا إله إلا هو ـ ثلاث مرات ـ أن أباه حدثه عن رسول الله بذلك ، فحلف له .

وهذه الآية كقوله تعالى : «وتلك الجنة التى أورثتموها بماكنتم تعملون» وقوله تعالى : «تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقياً» وقد قال مجاهد : الجنة هى الفردوس ، وفى حديث عبادة : الفردوس أعلاها يعنى أعلى الجنة . قال قتادة : وربوتها ، ومنها تفجر أنهار الجنة ، وقال أبوهريرة : جبل تتفجر منه أنهار الجنة ، وفى حديث أبى أمامة : الفردوس سُرّة الجنة . وقال مجاهد : الفردوس البستان بالرومية . وقال عبيد الله بن الحارث بن كعب إنه جنات الكروم والأعناب خاصة من الثمار ، وقال المبرد : الفردوس فيما سمعت من كلام العرب الشجر الملتف والأغلب عليه العنب ، وحكى الزجاج أنه الأودية التى تنبت ضروبا من النبت وهل هو عربى أو

أعجمي ؟ قولان ... وإذا قلنا أعجمي فهل هو فارسي أو رومي أو سرياني ؟ أقوال ....

وقوله تعالى : «**الذين يرثون الفردوس**» صفة كاشفة ، أو عطف بيان ، أو بدل وأيا ماكان ففيه بيان لما يرثونه ، وتقييد للوارثة بعد إطلاقها تفخيماً لها وتأكيداً . وقوله تعالى : «**هم فيها خالدون**» أى هم فى الفردوس خالدون لايخرجون منها أبداً . والفردوس مما يؤنث ويذكر ، والجملة إما مستأنفة مقررة لما قبلها ، وإما حال مقدرة من فاعل «يرثون» أو مفعوله كما قال أبوالبقاء .

ولنا وقفة متأنية مع مسألة «وراثة الفردوس» إذ أن الإرث فيما عرف من معناه مايستحقه الوارث عن أحد أقاربه بعد وفاته من مال أو غيره وكأن العمل الصالح للعبد المؤمن فى دنياه قد ورّثه الفردوس فى أخراه ، فهو مستحق للفردوس جزاء ماعمل وقدّم فى دنياه ،، «**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً خالدين فيها لايبغون عنها حِولا**» أو لنقل إن الله تبارك وتعالى قد تقبل هذا العمل الصالح منهم فى دنياهم ، فورثهم الفردوس وجعله حقالهم فى أخراهم وإن كان ذلك منه سبحانه منّة وكرما وتفضلاً فإن العبد مهما عمل فإن ذلك لايفى شيئاً من حق الله . وإذا كان الله قد أسكن آدم وزوجه الجنة منذ البداية ، وكان من المتوقع أن يعيش بنو آدم فى أكناف هذه الجنة منعّمين وادعين إلا أن آدم عصى

ربه وغوى وهبط من الجنة ليعيش على لأرض وبنوه من بعده ليواجهوا تحديات الشيطان إلى أن تقوم الساعة وشاءت إرادة الله أن يعود إلى هذه الجنة الصالحون من أبناء آدم وفق وعد الله لهم ، وكأنهم عادوا إلى ماكان يوما ما مستقرا لأبيهم وكأن الله ورثهم إياه عنه بعد تحقق إيمانهم وصلاحهم واستقامتهم على الطريقة واتباعهم منهج الله .

وبعد فهذه صفات المؤمنين الذين تحقق فلاحهم وفوزهم وهى صفات ترسم شخصية المسلم فى أفقها الأعلى وتحدد شخصية المؤمنين المكتوب لهم الفلاح وهى صفات وخصائص ذات أثر حاسم فى تحديد خصائص الجماعة المؤمنة ونوع الحياة التى تحياها ، الحياة الفاضلة اللائقة بالإنسان الذى كرمه الله وأراد له التدرج فى مدراج الكمال ... ولما كانت الحياة فى هذه الأرض لاتحقق الكمال المقدر لبنى الإنسان فقد شاء الله أن يصل المؤمنون الذين ساروا فى الطريق إلى الغاية المقدرة لهم هنالك فى الفردوس الأعلى ، دار الخلود بلا فناء ، والأمن بلاخوف ، والاستقرار بلا زوال ، والطمأنينة بلاقلق ، واللذة بلا انقطاع ، وتلك غاية الفلاح الذى كتبه الله لعباده المؤمنين وليس بعدها من غاية يمتد إليها وهم أو خيال .

ومن صفات المؤمنين تنتقل الآيات إلى دلائل الإيمان فى حياة الإنسان ذاته وفى أطوار وجوده ونموه مبتدئا بأصل النشأة الإنسانية ومنتهيا إلى البعث فى الآخرة مع الربط بين الحياتين فى السياق

يقول الله تعالى :

**«ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرارٍ مكين * ثم خلقنا النطفة علَقة فخلقنا العلقة مضْغةَ فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين * ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون* »**

## الشرح والتفسيـــر :

إن العلاقة وثيقة بين المؤمنين وصفاتهم المميزة لهم والمنبئة عنهم والدالة عليهم وبين دلائل هذا الإيمان فى خلق الله للإنسان ومظاهر قدرته وعظمته سبحانه فى هذه الأطوار والمراحل التى يمر بها خلق الإنسان خلقا من بعض فى ظلمات ثلاث لا دخل لأم أو أب فيها إنما هى قدرة الله البالغة تبارك الله أحسن الخالقين ، وهذه الشواهد الدالة على عظمة الله واقتداره هى التى تعمق الإيمان فى نفوس المؤمنين وهى التى تجلل إيمانهم وعقيدتهم خشية ورهبة وإجلالا وتنعكس على أعمالهم إخلاصا لله وخشوعاً وخضوعاً والتزاماً بأوامره واجتنابا لنواهيه .

## «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين»

الواو للاستئناف ، واللام واقعة في جواب القسم ، والإنسان : المراد به الجنس لأن أول الأفراد وأصل النوع وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون : قال ابن جرير : «إنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه ، وقال قتادة : استل آدم من الطين ، والسلالة : من سللت الشئ من الشئ إذا استخرجته منه فَهى ماسُلَّ من الشئ واستخرج منه ، وخلق جنس الإنسان من سلالة من طين باعتبار خلق آدم عليه السلام منها ، فيكون الكل مخلوقا من ذلك خلقا إجمالياً في ضمن خلقه ، وقيل خلق الجنس من ذلك بأعتبار أنه مبدأ بعيد لأفراد الجنس فإنهم من النطف الحاصلة من الغذاء الذى هو سلالة الطين وصفوته ، وفيه وصف الجنس بوصف أكثر أفراده لأن خلق آدم عليه السلام لم يكن كذلك ، أو يقال : ترك بيان حاله عليه السلام لأنه معلوم واقتصر على بيان حال أولاده . «مِنْ» الأولى ابتدائية متعلقة بالخلق و «مِنْ» الثانية يحتمل أن تكون كذلك إلا أنها متعلقة بسلالة على أنها بمعنى مسلولة ، أو متعلقة بمحذوف وقع صفة لسلالة ويحتمل أن تكون على هذا تبعيضية وأن تكون بيانية ، وجوز أن يكون «من طين» بدلا أو عطف بيان بإعادة الجار .

«ثم جعلناه نطفة في قرار مكين» الضمير في (جعلناه) عائد على جنس الإنسان كما قال سبحانه وتعالى في الآية الأخرى «وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين» أى ضعيف .. كما قال تعالى : «ألم نخلقكم من ماء مهين *

**فجعلناه في قرار مكين»** والقرار المكين : الرحم المُعَدُّ لذلك المهيأ له إلى قدر معلوم ومدة معلومة وأجل معين ، وإذا كان التمكن وصف ذى المكان وهو النطفة هنا إلا أن التمكن للرحم هو الأساس فى تحمل النطفة وحرزها وصونها وتهيئتها للنمو والاكتمال ، ومعنى تمكن الرحم ثباتها فى وضعها السوى بحيث لاتفضل ولاتمج مافيها .. و «نطفة» مفعولا ثانياً للجعل على أنه بمعنى التصيير ، ويجوز أن يكون الجعل بمعنى الخلق المتعدى إلى مفعول واحد ، ويكون «نطفة» منصوباً بنزع الخافض ، أى : ثم خلقنا الإنسان من نطفة .

«ثم خلقنا النطفة علقة» أى ثم صيرنا النطفة علقة والنطفة هى الماء الدافق الذى يخرج من صلب الرجل ـ أى ظهره ـ وترائب المرأة ـ أى عظام صدرها مابين الترقوة إلى السرة ـ فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة قال عكرمة : وهى دم تراها نقطة صغيرة عالقة بجدار الرحم فى أول الأمر تتغذى بدم الأم ... «**فخلقنا العلقة مُضْغَةً**» أى قطعة كالبضعة من اللحم بقدر مايمضع لااستبانة ولاتمايز فيها .

«فخلقنا المضغة عظاما» يعنى شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها ، وفى الصحيح : «كل جسد ابن ادم يبلى إلا عجْب الذنب منه خلق وفيه يركب» .

«فكسونا العظام لحما» أى جعلنا اللحم ساترا للعظام كاللباس الذى يكسو

الجسم ، وذلك اللحم يحتمل أن يكون من لحم المضغة بأن لم تجعل كلها عظاماً بل بعضها ويبقى البعض فيمد على العظام حتى يسترها . ويحتمل أن يكون لحما آخر خلقه الله تعالى على العظام ليكسوها .. والتعبير بالكسوة يفيد الشمول مع الستر والتجمل كما أن اللباس الذى يرتديه الإنسان يكسوه ويستره ويجلّله ويجملّه ، وإنما جمعَ العظام دون غيرها مما ورد ذكره فى الأطوار لأنها متغايرة هيئة وصلابة بخلاف غيرها ، ألا ترى عظم الساق وعظم الأصابع وأطراف الأضلاع . وقرأ ابن عامر ، وأبوبكر عن عاصم ، وأبان ، والمفضل ، والحسن ، وقتادة ، وهارون والجعفى ويونس عن أبى عمرو وزيد بن على رضى الله تعالى عنهما بإفراد العظام فى الموضعين اكتفاء باسم الجنس الصادق على القليل والكثير مع عدم اللبس .

«ثم أنشأناه خلقا آخر» أى ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقا آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ولذلك قيل :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

والمتبادر من إنشاء الروح وخلقها ، وظاهر العطف بـ «ثم» يقتضى حدوثها بعد حدوث البدن وهو قول أكثر الإسلاميين ، وقيل إنشاؤها : نفخها فى البدن أى جعلها متعلقة به عند البعض ، وجعلها سارية فيه عند أكثر المسلمين ، وقيل الخلق الآخر : القوى الحساسة ، وبهذه النفخة الإلهية يرقى الإنسان فى فكره

وأحاسيسه ومشاعره ويتفوق بماله من خصائص يتحقق بها ارتقاؤه وكماله وتميزه عن الحيوان الأعجم الذى يظل جامدا فى مرتبته الحيوانية لايتعداها إلى مرتبة أعلى .

وقد استدل الإمام أبوحنيفة بقوله تعالى : «ثم أنشأناه خلقا آخر» على أنّ مَنْ غصب بيضة فأفرخت عنده لزمه ضمان البيضة لا الفرخ لأنه خلق آخر.

قال فى الكشف : وفى هذا الاستدلال نظر على أصل مخالفيه لأن مباينته للأول لاتخرجه عن ملكه عندهم ، وقال صاحب التقريب : إن تضمينه للفرخ لكونه جزءا من المغصوب لالكونه عينه أو مسمى باسمه .

وقيل أيضا إن فى الآية دلالة على بطلان قول النظام : إن الإنسان هو الروح لا البدن ، فإنه تعالى بيّن فيها أن الإنسان مركب من هذه الأشياء ، وفيها كذلك دلالة على بطلان قول الفلاسفة : إن الإنسان لاينقسم ، وانه ليس بجسم ، وكأنهم أرادوا أن الإنسان هو النفس الناطقة والروح الأمرية المجردة فإنها التى ليست بجسم عندهم ولاتقبل الانقسام بوجه وليست داخل البدن ولاخارجه .. وفى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود ورواية الإمام أحمد «إن أحدكم ليجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : رزقه وأجله وعمله وهل هو شقى أو سعيد ، فو الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل

بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل اهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها .»

وفي الصحيح : «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين ليلة فيقول : يارب ماذا ؟ شقي أم سعيد ؟ أذكر أم أنثى ؟ فيقول الله فيكتبان ، ويكتب عمله وأثره ، ومصيبته ورزقه ، ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد على مافيها ولاينقص» «فتبارك الله أحسن الخالقين» فتعالى وتقدس شأنه سبحانه في علمه الشامل ، وقدرته الباهرة ، «وتبارك» فعل ماض لايتصرف ، والالتفات إلى الاسم الجليل «الله» لتربية المهابة ، وإدخال الروعة ، والإشعار بأن ماذكر من خلق الله وإبداعه وجميل صنعه إنما هو من أحكام الألوهية ، وللإيذان بأن حق كل من سمع مافصّل من آثار قدرته عز وجل أو لاحظه بعد تأمل ونظر أن يبادر إلى ذكر الله والتسبيح بحمده والإشادة ببديع صنعه وعظيم نعمه ، وجميل آلائه ، إجلالا وإعظاماً ، وخشوعاً وخضوعاً له جل في علاه .

و «أحسن الخالقين» أفعل تفضيل ويعرب صفة وتكون إضافة أفعل التفضيل محضة فتفيده تعريفاً إذا أضيف إلى معرفة ، ويعرب (بدلا) إذا كانت الإضافة غير محضة ، وقيل بل هو خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو أحسن الخالقين .

ومعنى الخالقين : المقدرين ، وهو وصف يطلق على غير الله تعالى ، كما قال

زهير : ولأنت تفرى ماخلقت وبعض القوم يخلق ثم لايفرى .

فالخالق هنا الذى يقدر الأديم ويهيئة لأن يقطعه ويخرزه ، وقال ابن عطية معناه : الصانعين ، يقال لمن صنع شيئاً خلقه وأنشد بيت زهير قال : ولاتنفى هذه اللفظة عن البشر فى معنى الصنع ، إما هى منفية بمعنى الاختراع . وقال ابن جريج : قال الله «أحسن الخالقين» بالجمع لأنه أذن لعيسى فى أن يخلق ، وتمييز أفعل التفضيل محذوف لدلالة الخالقين عليه أى أحسن الخالقين خلقا ، أى المقدرين تقديراً .

ويقول صاحب الظلال : «ليس هناك من يخلق سوى الله ، فأحسن هنا ليست للتفضيل ، إنما هى للحسن المطلق فى خلق الله : فتبارك الله أحسن الخالقين الذى أودع فطرة الإنسان تلك القدرة على السير فى هذه الأطوار وفق السنة التى لاتتبدل ولاتنحرف ولاتتخلف حتى تبلغ بالإنسان ماهو مقدر له من مراتب الكمال الإنسانى على أدق مايكون النظام ،،

إن التأمل والتفكير فى أمر خلق الإنسان ونشأته وتكوينه منذ كان نطفة تموج بالآف المخلوقات الدقيقة التى لاتراها العين المجردة إلى أن استوى بشرا سوياً لهو شئ تحار فيه العقول ، وتتفتح له مغاليق القلوب إيمانا وتصديقاً بالله الخالق القادر تبارك الله أحسن الخالقين ، ومن بديع نظم القرآن الكريم دلالة صدور كثير من آياته على أعجازها وذلك كما فى قوله تعالى : «فتبارك الله أحسن الخالقين» حيث جاءت هذه الخاتمة متسقة مع النظم ، مؤتلفة بإحكام فى السياق حتى

لتكاد الألسنة تنطق بها قبل أن تُملى أو تُتلى .. أخرج الطبرانى وأبونعيم فى فضائل الصحابة ، وابن مردوية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : لما نزلت «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين» إلى آخر الآية قال عمر رضى الله عنه «فتبارك الله أحسن الخالقين» فنزلت كما قال . وكان عمر رضى الله عنه يفتخر بذلك ويذكر أنها إحدى موافقاته الأربع لربه عز وجل ... وتروى هذه الموافقة عن معاذ بن جبل حيث كان الرسول يملى هذه الآية : «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين» إلى قوله «ثم أنشأناه خلقاً آخر» فنطق معاذ «فتبارك الله أحسن الخالقين» فضحك الرسول وسأله معاذ : مم ضحكت يارسول الله ؟ قال عليه الصلاه والسلام : «بها ختمت» .

ثم يتابع السياق خطاه لاستكمال مراحل الرحلة وأطوار النشأة ، فالحياة الإنسانية التى نشأت من الأرض لاتنتهى فى الأرض ، لأن عنصرا غير أرضى قد امتزج بها وسرى فيها وتدخل فى خط سيرها ، وجعل لها غاية غير غاية الجسد الحيوانى الفانى ، وجعل كمالها الحقيقى لايتم فى هذه الأرض ولافى هذه الحياة إنما يتم هنالك فى مرحلة جديدة ، وفى الحياة الأخرى التى هى خير وأبقى من الحياة الدنيا «ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون*» أى أنكم بعد هذه المراحل المتعددة والأطوار العجيبة صائرون إلى الموت لامحالة .. يدل على ذلك اسميه الجملة وانّ واللام وصيغة النعت الذى

هو للثبوت . واسم الإشارة «ذلك» بما فيه من معنى البعد يشعر بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته فى الفضل والكمال ودلائل القدرة وشواهد الربوبية مما نزل منزلة البعد الحسى بهذا الاعتبار .. والموت نهاية الإنسان فى حياته الأرضية وبرزخ مابين الدنيا والآخرة ، وهو إذن طور من أطوار النشأة الإنسانية وليس نهاية الأطوار ، ثم يكون البعث المؤذن بالطور الأخير من أطوار تلك النشأة ، وبعده تبدأ الحياة الكاملة المبرأة من النقائص الأرضية وشهوات الجسد ومنغصاته ، وهموم الدنيا ومصائبها ، وشرورها ومخاوفها وهذه الحياة الكاملة قد وعد بها أولئك الذين سلكوا طريق الكمال أعنى المؤمنين الذين ذكرت صفاتهم فى مطلع السورة .

هكذا بعد النشأة الأولى يصير الإنسان إلى الموت ثم تكون النشأة الآخرة بالبعث يوم المعاد ، وقيام الأرواح إلى الأجساد فيحاسب الخلائق ويوفّى كل عامل عمله إن خيرا فخير وإن شراً فشر .

وقرأ زيد بن على وابن أبى عبلة وابن محيصن «لمايتون» وهو اسم فاعل يراد به الحدوث ، ويقول الفرّاء وابن مالك : إنما يقال «مايت» فى الاستقبال فقط .

ويقول صاحب «البحر المحيط» فإن قلت : الموت مقطوع به عند كل أحد ، والبعث قد أنكرنه طوائف واستبعدته وإن كان مقطوعاً به من جهة الدليل ، فما بال جملة الموت جاءت مؤكدة بـ «إنّ» و «اللام» ولم تؤكد جملة البعث مثل هذا التأكيد ـ أى بـ «إنّ» و«اللام» معا ـ فالجواب : أنه بولغ فى تأكيد الموت

تنبيها للإنسان أن يكون الموت نصب عينيه ، ولايغفل عن ترقبه ، فإن مآله إليه .. ولأن الإنسان في الحياة الدنيا يسعى فيها غاية السعي ويكد ويجمع حتى كأنه مخلّد فيها فنبه بذكر الموت مؤكدا مبالغا فيه ليقصر وليعلم أن آخره إلى الفناء فيعمل لدار البقاء ، ولم تؤكد جملة البعث إلا بـ«إنّ» لأنه أبرز في صورة المقطوع به الذى لايمكن فيه النزاع ، ولايقبل إنكارا ، أو لأنه حتم لابد من كيانه فلم يحتج إلى توكيد ثان .. أو كما قال صاحب«روح المعاني» اكتفاء بتقديم مايغني عن كثرة التأكيد ، ويشيد أركان الدعوى أتم تشييد ، من خلقه تعالى للإنسان من سلالة من طين ، ثم نقله من طور إلى طور حتى أنشأه خلقاً آخر يستغرق العجائب ، ويستجمع الغرائب ، فإن في ذلك أدل دليل على حكمته ، وعظيم قدرته عز وجل على بعثه وإعادته ، وأنه سبحانه لا يهمل أمره ، ويتركه بعد موته نسيا منسيا مستقرا في رحم العدم كأن لم يكن شيئاً .. ولما تضمنت الجملة السابقة المبالغة في أنه تعالى شأنه أحكم خلق الإنسان وأتقنه بالغ سبحانه في تأكيد الجملة الدالة على موته مع أنه غير منكر لأن ذلك سبب لاستبعاد العقل إياه أشد استبعاد حتى يوشك أن ينكر وقوعه من لم يشاهده وسمع أن الله جل جلاله أحكم خلق الإنسان وأتقنه غاية الإتقان .. وربما يقال إن كراهة الموت بالطبع نزّلت منزلة شدة الإنكار فبولغ في تأكيد الجملة الدالة عليه . وبهذا الحديث عن النشأة الإنسانية والنهاية المحتومة بالموت والحياة البرزخية ثم بالبعث والنشور تكتمل دواعي الأمل وتتأكد شواهد الفلاح الذى وعد الله به المؤمنين في

مطلع السورة . **هؤلاء المؤمنون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون .**

ويطيب لي في هذا المقام أن أشير إلى ماتوصل إليه العلم الحديث أخيراً في مجال تطور الجنين بمراحله المختلفة الدقيقة المتتابعة ومطابقتها لما جاء في القرآن الكريم من مئات السنين .. ومعلوم أن مراحل تطور جنين الإنسان لم توصف معمليا إلا في نهاية القرن التاسع عشر .

وتبعا للمفهوم العلمي الحديث في حقل تطور الجنين فإنه يتكون بعد تخصيب البويضة بالحيوان المنوي ، وأن الأمشجة التي تنشط عن طريق الحيوان المنوي يحمل كل منها خصائص الآباء من خلال «الجينات» وفي القرآن الكريم الكثير من الحقائق التي تشير بوضوح إلى المفهوم الحديث في علم الأجنة وعلى سبيل المثال فإن الحق تبارك وتعالى يقول : **«هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً*»** ويقول سبحانه : **«هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم»** ويقول جلّ من قائل : **«يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ..»** ويقول العليم الخبير : **«فلينظر**

**الإنسان مم خُلق . خُلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب * إنه على رجعه لقادر» .**

وفى هذا يقول ت ـ ف ـ برسو أستاذ علم الأجنة الكندى : «إن القرآن الكريم رسم بصورة علمية دقيقة مراحل التطور التى يمر بها الجنين خلال مرحلة التخليق فالله سبحانه وتعالى يقول فى سورة «المؤمنون» «**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة** .... الآيات» فهذه صورة علمية بالغة الدقة رسمها القرآن وهاهو ذا العلم الحديث يتوصل إليها أخيرا فلكى تنتقل النطفة إلى أول شكل العلقة يستغرق ذلك أربعة أيام وهو وقت طويل بالمقارنة بانتقال العلقة إلى أول شكل المضغة ، ثم تتحول المضغة إلى أول شكل العظام بصورة أسرع نسبياً لتأتى مرحلة كساء العظام باللحم وتتم بسرعة لتنتهى مرحلة الجنين .. وإذا تأملنا الآيات الكريمة نجد أن حرف العطف «ثم» يدل على هذا الترتيب مع التراخى والمهلة ، وحرف العطف «الفاء» يدل على الترتيب والتعقيب وتتابع الأطوار ...

ويضيف العالم الأمريكى المعروف «مارشال جونسون» إلى ذلك قوله : «إن القرآن الكريم ينص على أن «العلقة» هى المرحلة التالية «للنطفة» وقد أثبتت ذلك

العلوم الحديثة بالإضافة إلى ماتوصلت إليه من أنه بعد مرحلة «المضغة» نجد التخليق ، وغير التخليق ، والقرآن يقول فى الآية الخامسة من سورة «الحج» :

**«يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة لنبيّن لكم ونقرُّ فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمًّى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشُدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العُمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ..»**

فالآية تشير إلى مرحلة المضغة ومايتبعها من تخليق بتكون الأنسجة وتخلقها فى هذه المرحلة ، وتقر فى الأرحام إلى فترة مقدرة ، وتظهر الغضاريف التى تكون أساس العظام ، أو عدم التخليق أصلا كما سبق أن ذكرنا ...» ويتابع العالم الأمريكى قوله : «إن ماتوصلنا إليه من علوم فى شأن مراحل التخليق لايمكن أن يقارن بمافى القرآن الكريم من حقائق ثابتة تتحدى التطور العقلى للتاريخ ، وانى أقول صراحة إن ما نسميه علما كوصف لما نبذله فى العلوم التجريبية لايمكن أن يظهر الحقيقة الكاملة بشأن سر الخلق الوارد فى القرآن بإشارات لاتقبل الجدل ، ولكن هذا العلم يعطى التقريب للحقائق» .

انتهى كلام العالم الامريكى .. ونحن حين نورد هذا الكلام وما شابهه لا

نحاول أبدا إخضاع الآيات الكريمة لحكم العلم ، وماتوصل إليه العلماء . وإنما نبرز بكل وضوح وجلاء خضوع العلم وتسليم العلماء بحقائق القرآن ، وشواهد صدقه ، ودلائل إعجازه ، بعد مئات السنين ، وهو المنزل على النبى الأمى الذى لم يكن يوما ما قارئاً ولاكاتبا كما أنه لم يكن بحال من الأحوال باحثاً فى مثل هذه المعارف والعلوم بل إنه لم يكن على أدنى دراية بها : بل ولم يكن أحد فى زمانه يدرى عنها شيئاً .. فسبحان الله علام الغيوب أحاط بكل شئ علما ، وأحصى كل شئ عددا .

* * * * * * * *

ومن دلائل الإيمان فى الأنفس تنتقل بنا الآيات إلى دلائل الإيمان فى الآفاق مما يشهده الناس ويعرفونه ثم يمرون عليه غافلين .

يقول تعالى : «ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وماكنا عن الخلق غافلين * وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنَّاه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون * فأنشانا لكم به جناتٍ من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون * وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدُّهن وصبغ للآكلين * وإنَّ لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تحملون *»

## الشرح والتفسير :

تسترسل الآيات الكريمة فى الكشف عن حقيقة الكون والحياة بعد كشفها عن حقيقة النشأة الإنسانية إمعانا فى استدعاء النظرة الصائبة والفكر الراشد والتأمل العميق المؤدى إلى الطمأنينة واليقين . «قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون» «إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل

**والنهار لآيات لأولى الألباب» «أو لم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون» .**

ففى الكون كله نظام عجيب ، وتناسق محكم ، وتصريف دقيق ، وانسجام بديع ، وهيمنة شاملة ، وقدرة بالغة فاقت سائر القوى والقدر .. «**ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وماكنا عن الخلق غافلين**» لما ذكر الحق تبارك وتعالى خلق الإنسان عطف بذكر خلق السموات السبع وكثيرا مايذكر خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان كما قال تعالى : «**لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس**» وقوله سبحانه «**سبع طرائق**» قال مجاهديعنى السموات السبع ، كقوله تعالى : «**تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن**» ـ «**ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا**» ـ «**الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما**» فالطرائق السبع هى السماوات السبع وطرائق جمع طريقة بمعنى مطروقة من طرق النعل والخوافى إذا وضع طاقاتها بعضها فوق بعض على ماذكره الخليل والفراء والزجاج . وقيل طرائق جمع طريقة بمعناها المعروف وسميت السماوات بذلك لأنها طرائق الملائكة فى هبوطهم وعروجهم لمصالح العباد أو لأنها طرائق

الكواكب فى مسيرها ، وقيل سميت طرائق لأن كل سماء طريقة وهيئة غير هيئة الأخرى ، ويجوز أن يكون الطرائق بمعنى المبسوطات من طرقت الحديد إذا بسطته . وقد نفى الله تعالى عنه الغفلة عن شئون خلقه أو عدم التنبه إلى مافيه صلاح الكون أو التقصير فى أمر من أموره فهو سبحانه يمسك السموات أن تقع على الأرض إلا بإذنه وهو سبحانه الذى جعل الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، وجعل الليل لباسا وجعل النهار معاشا ، فلا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فل يسبحون .. وهو سبحانه الذى مدّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين .. وهو سبحانه الذى سخر البحر لعباده ليأكلوا منه لحما طريا ويستخرجوا منه حلية يلبسونها وسخر لهم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ليبتغوا من فضله ولعلهم يشكرون .. وهو سبحانه الذى أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وأنبت به جنات وحبّ الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد .. وهو سبحانه العليم الخبير لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا رطب ولايابس إلا فى كتاب مبين .. والمراد بـ «الخلق» سائر المخلوقات و «أل» فيه للاستغراق ، وجوّز بعضهم أن تكون «أل» للعهد على أن المراد بالخلق المخلوق المذكور وهو السماوات السبع أى وماكنا عنها غافلين بل نحفظها عن الزوال والاختلال ونذير أمرها بفيض حكمتنا وقدرتنا «إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ...»

والإظهار فى مقام الإضمار للاعتناء بشأنها ، وإفراد الخلق على سائر الأوجه لأنه مصدر فى الأصل ، أو لأن المتعدد عنده تعالى فى حكم شئ واحد . ومع السموات السبع وشواهد القدرة الإلهية فى خلقها نذكر قول الحق تبارك وتعالى **«الله الذى رفع السموات بغير عَمَدٍ ترونها ثم استوى على العرش وسخَّر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمًّى يدبِّر الأمر يفصِّل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون»** .

وقوله جلّ شأنه **«أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيَّنَّاها ومالها من فروج»** وقوله سبحانه **«تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور * الذى خلق سبع سموات طباقا ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجِع البصر كرَّتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير»** .

هكذا ينبغى أن يكون التأمل والتدبر للتوصل إلى الحقيقة الكبرى وهى أنه سبحانه ماخلق السماوات والأرض ومابينهما إلا بالحق وإن الساعة آتية لاريب فيها وأن البعث واقع لاشك فيه وأن وعد الله لايتخلف فمن يعمل مثقال ذرَّة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرَّة شرا يره ، ولله عاقبة الأمور **«وأنزلنا من**

**السماء ماء بقدر فأسكنّاه في الأرض وإنّا على ذَهاب به لقادرون»** يذكر ربنا سبحانه وتعالى نعمه على عباده التى لاتعد ولاتحصى في إنزاله المطر من السماء بقدر أى بمقدار معلوم حسب الحاجة إليه من السقى والشرب والانتفاع به حتى إن الله يسوق الأمطار والأنهار إلى عباده من أماكن بعيدة لاقدرة لهم عليها ، ولادخل لهم فيها ليشربوا ويرتووا وترتوى معهم أرضهم ومواشيهم ، فتنبت الزروع ، وتمتلئ الضروع فسبحان اللطيف الخبير .

والمراد بالسماء جهة العلو أو السحاب أو معناها المعروف ولايعجز الله تعالى شئ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وكان الظاهر على هذا الإتيان بضمير السماء ليعود على الطرائق إلا أنه عدل عنه إلى الإظهار لأن الإنزال منه لايعتبر فيه كونها طرائق بل مجرد كونها جهة العلو ، وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للاعتناء بالمقدم ، والتشويق إلى المؤخر ، وقوله تعالى : «بقدر» صفة «ماء» أى أنزلنا ماء متلبسا بمقدار مايكفيهم أو بتقدير لائق لاستجلاب منافعهم ودفع مضارهم ، وجوز على هذا أن يكون فى موضع الحال من الضمير أى أنزلنا من السماء ماء مقدرين جلب المنافع ودفع المضار ، وقيل هو صفة لمصدر محذوف أى إنزالا متلبسا بمقدار مايكفيهم ويحقق مصالحهم .

وقوله تعالى : «فأسكنّاه فى الأرض » أى جعلناه ثابتا مستكنا قارا فيها تتقبله الأرض وتتشربه وتحتفظ به ، ومن ذلك ماء العيون والآبار والغدران ونحوها ،

ومعظم الفلاسفة يزعمون أن ذلك الماء بباطن الأرض إنما هو أثر لانقلاب البخار المحتبس فى الأرض ماء إذا مال إلى جهة منها وبرد ، وليس لماء المطر دخل فيه ، وكونه من السماء باعتبار أن لأشعة الكواكب التى فى السماء مدخلا فيه من حيث الفاعلية ، وقال ابن سينا فى «النجاة» : «هذه الأبخرة المحتبسة فى الأرض إذا انبعثت عيونا أمدت البحار بصب الأنهار إليها ثم ارتفع من البحار والبطائح وبطون الجبال خاصة أبخرة أخرى ثم قطرت ثانياً إليها فقامت بدل مايتحلل منها على الدور دائما ..» ويقول صاحب الظلال : «ونظرية أن المياه الجوفية ناشئة من المياه السطحية الآتية من المطر ، وأنها تتسرب إلى باطن الأرض فتحفظ هناك نظرية حديثة فقد كان المظنون إلى وقت قريب أنه لاعلاقة بين المياه الجوفية والمياه السطحية ، ولكن هاهو ذا القرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة قبل ألف وثلثمائة عام .. » ويقول : «وما أشبهه وهو مستكن فى الأرض بماء النطفة وهو مستقر فى الرحم وفى قرار مكين ، كلاهما مستقر هنالك بتدبير الله لتنشأ عنه الحياة .. وهذا من تنسيق المشاهد على طريقة القرآن فى التصوير ...»

وقال مجاهد : «ليس فى الأرض ماء إلا وهو من السماء» ومانزل من السماء أصله من البحر ارتفع بقدرة الله وبديع صنعه عن طريق البخر وتكون السحب من هذه الأبخرة المحملة بالماء العذب الذى تخلص من ملوحته وعذب وطاب وأنزله الله إلى الأرض مرة أخرى لينتفع به العباد .. ولو كان باقيا على حاله ما انتفع به لملوحته . وإذا كان الحق تبارك وتعالى قادراً على حفظ ماء السماء

فأسكنه فى الأرض وسلكه ينابيع فيها فلا ينبغى أن يغتر أحد بهذا الفضل الربانى وتلك النعمة الإلهية لأن الله قادر على أن يُذهب هذا الماء ويبيده ويبدده فلايمكن الانتفاع به ، فليشكر الناس ربهم ليستديموا نعمته وليحافظوا عليها ويحسنوا التصرف فيها لأن فى ذلك اعترافا بفضل الله واقرارا بعظيم نعمته «لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد» .

«وإنا على ذهاب به لقادرون» أى كما كنا قادرين على إنزاله وإسكانه فى الأرض للأنتفاع به فنحن قادرون على إزالته وإبادته فلو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبرارى والقفار ، ولو شئنا لجعلناه أجاجا لاينتفع به ، ولو شئنا لجعلنا الماء غورا لاتصلون إليه ولاتنتفعون به .. ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم المطر من السحاب عذبا فراتا زلالا يجريه أنهارا أو يسكنه فى الأرض ينابيع وآبارا أر يتفجر منها عيونا فلله الحمد رب العالمين .

والجملة فى موضع الحال ، وفى تنكير «ذهاب» إيماء إلى كثرة طرقه لعموم النكرة وإن كانت فى الإثبات ، وبواسطة ذلك تفهم المبالغة فى الإثبات .

قال الزمخشرى : «على ذهاب به من أوقع النكرات وأحزها للمفصل والمعنى على وجه من وجوه الذهاب وطريق من طرقه انتهى ، وذهاب مصدر ذهب و «الباء» فى «به» للتعدية مرادفة للهمزة كقوله تعالى : «لذهب بسمعهم» أى لأذهب سمعهم ، وفى ذلك وعيد وتهديد بأن فى قدرتنا إذهاب الماء فيتحقق

هلاككم لامحالة .. وهذا أشد في الإيعاد من آية الملك «قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين» لأن شدة الإيعاد هنا في سورة «المؤمنون» مقصودة ، وليس الأمر كذلك في سورة الملك لأن مجالها الاستمالة والتلطف .

وقد ذكر صاحب التقريب ثمانيـة عشر وجها لهذه الأبلغية في الإيعاد كما يلي :

١ ـ أن آية الملك على سبيل الفرض والتقدير ، وهنا على سبيل الجزم بمعنى أنه أدل على تحقيق ما أوعد به وإن لم يقع .

٢ ـ التوكيد بـ«إنّ» .

٣ ـ اللام الداخلة على الخبر .

٤ ـ الآية التي معنا في مطلق الماء المنزل من السماء وآية الملك في ماء مضاف إليهم .

٥ ـ أن الغائر قد يكون باقيا بخلاف الذاهب .

٦ ـ مافي تنكير ذهاب من المبالغة .

٧ ـ إسناده هنا إلى مُذهب بخلافه هناك حيث قيل «غورا» .

٨ ـ مافي ضمير المعظم نفسه من الروعة .

٩ ـ مافى «قادرون» من الدلالة على القـدرة عليه والفعل الواقع من القادر أبلغ .

١٠ ـ مافى جمعه .

١١ ـ مافى لفظ «به» من الدلالة على أن مايمسكه فلا مرسل له .

١٢ ـ إخلاؤه من التعقيب بإطماع ، وهنالك ذكر الإتيان المطمع .

١٣ ـ تقديم مافيه الإيعاد وهو «الذهاب» على ماهو كالمتعلق له أو متعلقه على المذهبين البصرى والكوفى .

١٤ ـ مابين الجملتين الاسمية والفعلية من التفاوت ثباتا وغيره .

١٥ ـ مافى لفظ «أصبح» من الدلالة على الانتقال والصيرورة .

١٦ ـ أن الإذهاب ههنا مصرح به ، وهنالك مفهوم من سياق الاستفهام .

١٧ ـ أن هنالك نفيَ ماء خاص أعنى «المعين» بخلافه ههنا .

١٨ ـ اعتبار كل هذه الأمور التى يكفى كل منها مؤكدا .

وقد عقب الألوسى بقوله : «وفى النفس من عدّ الأخير وجها شئ» وقد أوصلها بعضهم إلى ثلاثين وجها .....

وإنما جاءت المبالغة هنا على ماقاله بعض المحققين لأن المقام يقتضيها إذ هو لتعداد آيات الآفاق والأنفس على وجه يتضمن الدلالة على القدرة والرحمة مع

كمال عظمة المتصف بهما ، ولذا ابتدئ بضمير العظمة مع التأكيد بخلاف ماهنالك فإنه تتميم للحث على العبادة والترغيب فيها وهو كاف فى ذلك .

وأود أن أنبه فى هذا المقام إلى أن بلاغة الإيعاد فى سورة «المؤمنون» مناسبة تماما لموضوع السورة وسياقها وأهدافها وغايتها ، ولطف الإيعاد فى سورة الملك مناسب تماما كذلك لموضوع السورة وسياقها وأهدافها وغاياتها فكل آية من الآيتين بليغة فى موضعها وسياقها وسورتها بكا اعتبار . بمعنى أن آية «المؤمنون» لايتأتى أن تحل محل آية «الملك » وكذلك لايتأتى لآية «الملك» أن تحل محل آية «المؤمنون» وتلك لمحة مبهرة من لمحات الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم .

ولما ذكر سبحانه وتعالى نعمة الماء ذكر ماينشأ عنه فقال **«فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون»** يعنى فأخرجنالكم بما أنزلنا من السماء من ماء جنات أى بساتين وحدائق ذات بهجة ومنظر حسن ، وإنما خص النخيل والأعناب والزيتون بعد ذلك لأنها أكرم الشجر وأجمعها للمنافع ، ووصف النخل والعنب بقوله «لكم فيها فواكه كثيرة .... الخ » لأن ثمرها جامع بين أمرين أنه فاكهة يتفكه بها وطعام يؤكل رطبا ويابسا رطبا وعنبا وتمرا وزبيباً .. والزيتون لأن دهنه صالح للاستصباح والاصطباغ جميعا ، ويحتمل أن يكون قوله «ومنها تأكلون» أن هذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها ترزقون وتتعيشون كما يقال : فلان يأكل

من حرفة يحترفها ومن تجارة يتربح بها ، والمقصود بذلك أنها طعمته وجهته التى يحصل منها رزقه ، وقال الطبرى : وذكر النخيل والأعناب لأنها ثمرة الحجاز بالطائف والمدينة وغيرهما ، وضمير المؤنث الغائب فى «ولكم فيها» عائد على الجنات وهو أعم لسائر الثمرات ، ويجوز أن يعود على النخيل والأعناب والمعنى حينئذ أن لكم فى ثمراتها أنواعا من الفواكهالرطب والعنب والتمر والزبيب والدبس من كل منهما وغير ذلك وطعام تأكلونه فثمرتهما جامعة للتفكه والغذاء بخلاف ثمرة ماعداهما وعلى هذا تكون الفاكهة مطلقه على ثمرتهما .. وذكر الراغب فى الفاكهة قولين : الأول أنها الثمار كلها ، والثانى أنها ماعدا العنب والرمان ، والفيروز أبادى صاحب القاموس المحيط اختار الأول ورد قول من أخرج التمر والرمان من جملة الفواكه لقوله تعالى «فيها فاكهة ونخل ورمان» .

وللفقهاء أيضا خلاف فى الفاكهة فالإمام أبوحنيفة يرى أنها التفاح والبطيخ والمشمش والكمثرى ونحوها لا العنب والرمان والرطب ، وقال صاحباه أبويوسف ومحمد : المستثنيات أيضا فاكهة وعليه الفتوى ، ولاخلاف فى أن اليابس منها كالزبيب والتمر ليس بفاكهة كما فى القهستانى نقلا عن الكرمانى ... ويظهر أثر هذا الخلاف فيمن حلف لايأكل فاكهة عنبا فلايحنث فى رأى أبى حنيفة ومن يقول بقوله ، ويحنث عند الصاحبين .

«وشجرةً تخرجُ من طُور سَيْناء تَنْبُت بالدُّهْن وصِبْغ

**للآكلين»** يعنى الزيتونة والطور هو الجبل ، وقال بعضهم : إنما يسمّى طورا إذا كان فيه شجر . و«طور سيناء» هو «طور سنين» الذى أقسم الله تعالى به فى قوله تعالى : **«والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم»** وهو الجبل الذى كلّم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وماحوله من الجبال التى فيها شجر الزيتون ، و«شجرة» بالنصب عطف على جنات ، وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف أى ومما أنشئ لكم شجرة ، وكأنها لمكانتها وبركتها استؤنفت بالقول ولم تعطف على ماقبلها بسبب هذه الخصوصية .

وجمهور العرب على فتح سين «سيناء» والمد ، وبذلك قرأ عمر بن الخطاب ويعقوب وأكثر السبعة وهو اسم للبقعة ، وقرأ الأعمش «سيّنا» بالفتح والقصر ، وقرئ «سِينا» بالكسر والقصر ، وقرأ الحرميان وأبو عمرو والحسن «سِيناء» بكسر السين والمد وهى لغة لبنى كنانة . وقال الجمهور «سيناء» اسم الجبل كما تقول «جبل أحد» من إضافة العام إلى الخاص ، وقال مجاهد : معنى سيناء مبارك ، وقال قتادة معناه الحسن والقولان عن ابن عباس ، وقيل معناه ذو شجر ، وقيل سيناء اسم حجارة بعينها أضيف الجبل إليها لوجودها عنده قال مجاهد ، والأكثرون على أنه ليس بعربى بل هو إما نبطى أو حبشى وأصل معناه كما قلنا الحسن أو المبارك ، وجوّز بعضهم أن يكون عربيا من السناء بالمد وهو الرفعة أو السّنا بالقصر وهو النور ... والمراد بهذه الشجرة كما قلنا شجرة الزيتون ،

وتخصيصها بالذكر من بين سائر الأشجار لاستقلالها بمنافع معروفة ، وقد قيل هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان وتعمر كثيرا حتى إن صاحب التذكرة يذكر أنها تدوم ألف عام ويعلل ذلك بقوله : لتعلقها بالكوكب العالى ، ولاندرى ما الكوكب العالى ؟! وفى تفسير الخازن : قيل تبقى ثلاثة آلاف سنة .. وقوله تعالى : «تنبت بالدهن» بفتح التاء وضم الباء وعلى هذا تكون الباء فى «بالدهن» باء الحال أى تنبت مصحوبة بالدهن أى ومعها الدهن، وقرأ ابن كثير وأبوعمير وسلام وسهل ورويس والجحدرى بضم التاء وكسر الباء فقيل بالدهن مفعول والباء زائدة والتقدير : تنبت الدهن ، وقيل المفعول محذوف وبالدهن فى موضع الحال من المفعول المحذوف والتقدير : تنت جناها مصحوبا بالدهن أى ومعه الدهن . وقيل «أنبت» لازم كنبت فتكون الباء للحال . وقرأ الحسن والزهرى وابن هرمز بضم التاء وفتح الباء مبيناء للمفعول وبالدهن حال ، وقرأ سليمان بن عبدالملك والأشهب «بالدهان» بالألف . «وصبغ للآكلين» معطوف على الدهن والعطف يقتضى المغايرة ومغايرته له باعتبار المفهوم وإلا فذاتهما واحدة عند كثير من المفسرين ، والمعنى : تنبت بالشئ الجامع بين كونه دهنا يدهن به ويسرج منه وكونه إداما يصبغ فيه الخبز أى يغمس للائتدام قال فى المغرب : يقال : صبغ الثوب بصبغ حسن وصباغ ومنه الصبغ والصباغ من الإدام لأن الخبز يغمس فيه ويلون به كالخل والزيت .. وأخرج أبونعيم فى الطب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «كلوا الزيت وادهنوا

**به فإنه شفاء من سبعين داء منها الجذام»** وأخرج الترمذى فى الأطعمة عن عمر رضى الله عنه مرفوعا «كلوا الزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة » وقال مقاتل : الصبغ : الزيتون ذاته ، والدهن : الزيت .

وقرأ ابن مسعود «تخرج الدهن وصبغ الآكلين» وفى قراءة أُبىّ : «تثمر بالدهن» وقرأ عامر بن عبد قيس «ومتاعا للآكلين» فالصبغ عنده متاع للآكلين أى منفعة لهم ومتعة .

وبعد هذا العرض القرآنى المعجز لشواهد القدرة الإلهية فى السماوات السبع ومافيها من بديع الصنع وعظمة الصانع وجلال الغاية والقصد ودلائل الفضل والمِنّة وفى الماء المنزّل من السماء بقدر وحساب رزقا للعباد ورمزا للحياة والخصوبة والنماء إذ أنشأ به المنعم المتفضل جنات من نخيل وأعناب وزيتون تفيض بالخيرات والبركات غذاء وتفكها ومتعة وتنعما بالخضرة والجمال وحسن المجالى وطيب المغانى .. أقول بعد هذا العرض تسترسل الآيات البينات فى ذكر خلقه سبحانه وتعالى للأنعام ومافيها من عظات بالغات فيقول الحق تبارك وتعالى : **«وإنّ لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تحملون *»** .

بيان للنعم الواصلة إليهم من جهة الحيوان إثر بيان النعم الفائضة من جهة الماء والنبات ومع كون هذه الأنعام فى نفسها نعمة ينتفعون بها على وجوه شتى فإنها أيضا عبرة لابد أن يعتبروا بها ويستدلوا بأحوالها على عظيم قدرة الله ، وسابغ رحمته ، وجليل فضله وإحسانه ، ويشكروه ولايكفروه ، وإنما خُصَّ هذا بالحيوان لأن محل العبرة فيه أظهر ، وشواهد القدرة فيه أبين ، فهم يشربون من نتاجها شرابا مصفًى من بين فرث ودم لبنا نقيا خالصا سائغاً للشاربين ، ويأكلون من لحومها ، ويتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ثيابا وأثاثا ومَتاعا إلى حين، ويصنعون منها بيوتا وخياما ، ويركبون ظهورها ، ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم قال تعالى : «**والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم***» وقال تعالى : «**وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون * ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ***» .

والأنعام فى لغة العرب ذوات الخُف والظِّلف وهى الإبل والبقر والغنم ، وقيل تطلق كلمة الأنعام على هذه الثلاثة فإذا انفردت الإبل فهى نَعَم وإن انفردت البقر والغنم لم تسمَّ نعما بل هى أنعام .

وهذه الأنعام التي سخرها الله بفضله وكرمه للإنسان في شتى وجوه المنافع والمقاصد نعمة كبرى من الله تستحق التأمل والتفكر والتدبر في عظمة الله تبارك وتعالى وقدرته وفيض نعمته ورحمته ، وسمو تقديره وتدبيره ، كما أنها تستدعي الشكر الجزيل من قبل الإنسان بحسن التعامل مع هذه النعمة وفق منهج الله وأوامره وحفظ حق الله فيها والوقوف عند حدود المنافع الكثيرة التي أشارت إليها الآية الكريمة دون تجاوز أو سعي بالفساد والإفساد أو ميل إلى احتكار أو بغي وعدوان .

وجملة «**نسقيكم مما في بطونها**» تفصيل لما فيها من مواقع العبرة ونُسقيكم بضم النون اعتبارا للخالق عز وجل فهو السبب في السقيا وقرئ «تسقيكم» بالتاء المفتوحة منسوبة للأنعام قصدا للمباشرة الفعلية للسقيا .

وفي قوله تعالى : «ولكم فيها منافع كثيرة» إجمال وتعميم للمنافع ماهو معلوم لهم ، وما هو غير معلوم .. وهذا أبلغ في مقام الامتنان من الحصر .. ثم خص بعد ذلك منفعتين بالذكر هما الأكل والحمل فقال سبحانه «ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تُحملون» امتنان بأكلهم منها .وحملهم عليها ، والأكل قوام حياة الإنسان لايستطيع أن يحيا بدونه ولايستطيع أن يؤدي عملا من غير أن يتزود به ولذلك استحق أن يُفصح عنه ، ويُنوّه به ، اعتبارا لخصوصيته ، وكذلك الحمل والانتقال من مكان إلى مكان أمر لاغنى للإنسان عنه فاستحق أن يُنوّه به

كذلك في مجال امتنان الله على خلقه بنعمه التي لاتعد ولاتحصى وللإبل خصوصيتها في مجال الحمل والانتقال فهي سفن الصحراء أعدها الله وسخرها لهذا الارتحال الشاق العنيف مع تحمل الجهد والجوع والعطش أياما متتابعة فيالقدرة الله !! ، وليس الامتنان هنا امتنانا بحملهم في البر فحسب وإنما هو امتنان ممتد يشمل حملهم في البر والبحر ولادخل لهم في شئ منهما وإنما هو تسخير وتذليل من الله رب العالمين القادر على كل شئ اللطيف بعباده الرزاق ذى القوة المتين . ويربط السياق بين حمل الإنسان على الأنعام وحمله على الفلك بوصفهما مسخّرين بنظام الله الكوني الذى ينظم وظائف الخلائق جميعا ، كما ينسق بين وجودها جميعا ، فهذا التكوين الخاص للماء ، والتكوين الخاص للسفن والتكوين الخاص لطبيعة الهواء فوق الماء والسفن هو الذى يسمح للفلك أن تطفو فوق سطح الماء ، ولو اختل تركيب واحد من الثلاثة أو اختلف أدنى اختلاف ما أمكن أن تتم الملاحة التي عرفتها البشرية من قديم الزمان ، وماتزال إلى اليوم ومابعد اليوم تعتمد عليها جل الاعتماد ، وكل هذا من دلائل الإيمان الكونية لمن يتدبرها تدبر الفهم والإدراك وهذه الدلائل تتصل اتصالا وثيقاً بدلائل الإيمان في خلق الإنسان وأطوار نشأته ، كما تتصل بصفات المؤمنين الذين استغرقتهم دلائل الإيمان وشواهد اليقين ، فعمق إيمانهم بالله ، وفاض على صلاتهم خشوعا وعلى كلامهم جدا واتزانا ، وعلى أموالهم طهرا وتزكية ونماء ، وعلى فروجهم وسائر حواسهم حفظا واستقامة ، وعلى أماناتهم أداء ورعاية .

هكذا تتابع الآيات موضحة ومفصلة سمات المؤمنين وصفاتهم وماوعدهم الله به من جزاء عظيم ونعيم مقيم ، ومبينة أروع الأدلة المؤدية إلى الإيمان ممثلة في عظمة الله وجلاله ، وباهر قدرته ، وبالغ حكمته ، وبديع صنعه في خلق الإنسان وتتابع نموه وتطوره في نشأته منذ أن كان سلالة من طين إلى أن جعله نطفة في قرار مكين إلى أن استوى بشرا سويا يتقلب في نعيم الله وفيض إحسانه إلى يوم يلقاه .

ثم في هذه الشواهد الكونية الناطقة بوحدانية الله ، وتفرده بالربوبية ، واختصاصه بواسع الرحمة ، وعظيم الفضل ، وفيض الإنعام ..

وتنتقل الآيات من دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق إلى حقيقة الإيمان التي جاء بها الرسل جميعا ، وكيف كان استقبال الناس لهذه الحقيقة الواحدة التي لاتتبدل على مدار الزمان ، وتعدد الرسالات ، وتتابع الرسل ، وكيف كان حكم الله على أولئك المكابرين المعاندين الذين كذّبوا برسلهم وأصروا واستكبروا استكبارا .

ومع تعدد الأقوام والأمم ، وتعدد الأنبياء والرسل لكن تبقى الحقيقة الكبرى واضحة ماثلة في أن توحيد الله وعدم الشرك به والإقرار بربوبيته والاستجابة لدعوة رسله أساس النجاة والنعيم المقيم والخير العميم ، وأن الشرك بالله والتكذيب برسله مجلبة للهلاك العاجل ، والعذاب الدائم ، والخسران المبين .

ومع أن هذه الحقيقة الإيمانية التى جاء بها المرسلون واضحة جلية إلا أن بعض النفوس الخبيثة المتدنية ترفضها وتأباها وتنكرها .. وهذا ماحدث بالفعل مع نوح وقومه إذ دعاهم نوح أن «**اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين * إن هو إلا رجل به جِنَّة فتربصوا به حتى يحين** *» وصبر نوح على تكذيب قومه وأذاهم وظل ثابتا على دعوته دون أن يجد منهم آذانا صاغية ، وقلوبا واعية ، ولما يئس منهم توجه إلى ربه : «**قال رب انصرنى بما كذبون * فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنُّور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون** *» وفى أحداث نوح مع قومه عظات بالغات لمن أقى السمع وهو شهيد «إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين» إنه ابتلاء لنوح وابتلاء للمؤمنين به وابتلاء لقومه وابتلاء لكل من يسمع هذه القصة فيتعظ أو لايتعظ ..

ومن بعد قوم نوح كانت عاد قوم هود الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة ونسبوا إلى نبيهم الكذب والافتراء وغرهم ماهم فيه من ترف ونعيم فتمادوا فى

غيهم يعمهون وتوجه هود إلى ربه بنفس دعاء نوح «**قال رب انصرنى بما كذّبون * قال عما قليل ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين ***» .

وجاء بعدهم أقوام وأقوام قيل هم بنو إسرائيل وقيل هم قوم صالح ولوط وشعيب وأيوب ويونس وغيرهم .. ثم كان بعث موسى وهارون إلى فرعون وقومه «**فاستكبروا وكانوا قوما عالين * فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون * فكذبوهما فكانوا من المهلكين**» .

وبعد إغراق فرعون ومن معه أنزل الله التوراه على موسى لتكون هداية لقومه «**ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون**» أى رجاء أن يهتدوا بما فيها من تشريع وأحكام وآداب وتعاليم فيتم لهم الانتفاع بها .

وأشارت الآيات بإيجاز شديد إلى رسول الله عيسى وأمه مريم «**وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين**»

مريم آية من آيات الله الشاهدة على قدرته إذ حملت بعيسى دون أن يمسسها بشر وعيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم جاء من غير أب وتكلم فى المهد ، وخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله وينبئ الناس بما يأكلون ومايدخرون فى بيوتهم»

وفي قصة عيسى بن مريم دليل على وحدانية الله وعظيم قدرته وبالغ حكمته ومع ذلك كذب بها المكذبون ولم تنفذ إلى قلوبهم وتشككوا فيها ومن آمن به واقتنع رفعه إلى مرتبة الألوهية واتخذه إلاها فكان بذلك مشركا بالله الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

ثم كان خطاب الله لرسله بهذا النداء الربانى «يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم * وان هذه أمتكم أمةً واحدة وأنا ربكم فاتقون * .

وهكذا تتلاشى آماد الزمان ، وأبعاد المكان أمام وحدة الحقيقة الإيمانية التى جاء بها الرسل ، ووحدة الطبيعة الصافية الطاهرة التى تميزهم ، ووحدة الخالق الأعظم الذى أرسلهم رحمة للعالمين ، ووحدة الاتجاه السوى الأمثل الذى يؤلف بينهم أجمعين ..

يرى بعض المفسرين ومنهم الزمخشرى أن عيسى عليه السلام وأمه الصديقة مريم لما آواهما الحق تبارك وتعالى إلى ربوة ذات قرار ومعين فيها الزروع والغرس والماء والمستقر فى غوطة دمشق أو رملة فلسطين أو بيت المقدس أو فى مصر أمرهما سبحانه أن يأكلا من هذا المكان الطيب مادام الأكل حلالا طيباً أى نأمركم بأكل الحلال الطيب كما أمرنا جميع الرسل فقلنا «يأيها الرسل كلوا من الطيبات ...» على سبيل الحكاية . وأبوحيان يرى أن نداء الرسل بمعنى نداء كل

واحد وخطابه في زمانه لأنهم لم يجتمعوا في زمان واحد وإنما أتى بصورة الجمع للإشارة إلى أهمية هذا الأمر الذى نودى له جميع الرسل وأنه حقيق أن يوحّد به ويعمل به .

وقيل إن الخطاب للرسول ﷺ باعتباره خاتم الرسل وفى ذلك إشارة إلى توحيد المنهج السلوكى بين رسله الله جميعهم كما توحد المنهج الإيمانى الاعتقادى فى رسالاتهم جميعها ..

إن الهدف من هذا العرض الحيوى المثير لبعض قصص المرسلين التأكيد على أن الحقيقة الإيمانية تتفق فى شتى الرسالات وأن جوهر التوحيد يسرى فى كيان هذه الدعوات التى جاء بها المرسلون وأنهم جميعا متفقون فى الصمود والتصدى للشرك والطغيان إعلاءً لكلمة الله وجهادا فى سبيله مهما واجهوا من العنت والعذاب والابتلاء وفى هذا العرض المتميز لهذا القصص تنوير لبصائر المؤمنين وإعلاء لعقيدة التوحيد ، وتنمية للمنهج الإيمانى ، والسلوك السوى فى كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ... وهذا ماتهدف إليه سورة «المؤمنون» من بدايتها إلى منتهاها .

وهؤلاء الذين اختلفوا وتنابذوا وانقسموا مذاهب متفرقة وعقائد متباينة موقنين أن ماهم عليه حق وأن سواهم على ضلال إنما هم فى غمرة من الجهالة والضلالة تحجب عنهم الحقائق وتضيق عليهم المسالك وتقطع بهم السبل

وتراكم عليهم الغواشى فلايفيقون منها إلا حين يأتيهم أمر الله «**فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بمالديهم فرحون * فذرهم فى غمرتهم حتى حين***»

وفى قوله : «فتقطعوا أمرهم بينهم زُبُرا» تصوير لانقسامهم واختلافهم وتفرقهم وتباينهم فى عقائدهم ومذاهبهم وأهوائهم . وأصل «الغمر» الماء الكثير وكأن الجهل الذى اعتراهم ماء قد غمرهم وعلاهم فلم يدركوا حقائق الأشياء والأمور ولجوا فى غيِّهم يعمهون ، لقد ظن هؤلاء أن ماهم فيه من رفاهية وثراء وتنعم بالبنين دليل على رضوان الله عنهم وتوفيقهم فى عقائدهم ومذاهبهم وتعجيل باالخير لهم فى الدنيا ليكون حقا ثابتا لهم فى الآخرة «**أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون**» إنهم إن حسبوا ذلك فهم واهمون فاقدون الإحساس والشعور محرومون من التفكير والتعقل فأمر الله معهم على الاستدراج والإمهال وليس على سبيل المسارعة فى الخيرات .

«**إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون*والذين هم بربهم لايشركون* والذين يؤتون ما أتَوْا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ***»

هؤلاء الموحدون المشفقون هم الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه وهم الذين يسارعون في الخيرات ويتسابقون في مضمارها فيعجل الله لهم الخيرات ويحقق لهم المكرمات ،

هؤلاء الذين هم في خوف ورهبة من ربهم إخلاصا وإجلالا ، وحذرا وإشفاقا ، والذين يؤمنون بآيات ربهم المسطورة في كتابه المبين ، والمنظورة في كونه الممتد الفسيح ، والذين يدينون له بالوحدانية ولايشركون به شيئاً ، والذين يبذلون ما يبذلون من الخيرات والقربات مستقلين ذلك في جنب الله خائفين وجلين من لقائه ... هؤلاء الموحدون المشفقون هم الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه وهم الذين يسارعون في الخيرات ويتسابقون في مضمارها فيعجل الله لهم الخيرات ويحقق لهم المكرمات ، روى الامام أحمد عن عائشة أنها قالت : يارسول الله : الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال : لابنت أبى بكر يابنت الصديق ! ولكن الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل . يقول الحسن : إن المؤمن يجمع بين الإحسان والخوف ، والمنافق يجمع بين الإساءة والأمن . وهذا أمر عجيب ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .

والتعبير بـ «أولئك» في قوله تعالى «أولئك نسارع لهم في الخيرات» يشير إلى علو مكانتهم ، وبعد منزلتهم في الفضل ، وأنهم هم المستحقون للمسارعة في

الخيرات ، وهم سباقون إليها بمبادرتهم وإقبالهم عليها ، والتعبير بالفعل المضارع «نسارع» يفيد التجدد والاستمرار ، فهى مسارعة لاتنقطع ولاتتوقف ، بل هى باقية متجددة بتجدد الدواعى والمواقف والأعمال .

ومسارعه الثواب فى الدنيا جاءت بها آيات الكتاب الحكيم من مثل قول الحق تبارك وتعالى : «»فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله لايضيع أجر المحسنين» وقوله تعالى : «وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين» وعلى هذا يكون تأويل قوله تعالى : «وهم لها سابقون» أنهم يحصلون على الخيرات فى هذه الدنيا قبل يوم الجزاء فقد سبقوا إليها ونالوها فى العاجلة . وفى قراءة «أولئك يسرعون فى الخيرات» مضارع أسرع من غير مفاعلة من الجانبين المتحققة فى القراءة الأخرى المشهورة «يسارعون فى الخيرات» والزجاج يرى أنها أبلغ من «يسرعون» لأن فيها حث النفس على السبق والمجاهدة فى سبيل الوصول إلى الغاية مع المنافسة فى المسارعة ، وهذا المعنى يتلاءم مع جعل المسارعة فى فعل الطاعات ، وليس فى نيل الثواب على عجل ، ومفعول «سابقون» محذوف فى قوله تعالى «وهم لها سابقون» أى وهم للخيرات سابقون الناس أى يسبقونهم إليها ، أو بحصولهم على الثواب فى الدنيا كأنهم سبقوا غيرهم من الناس الذين أرجئ حسابهم ليوم المعاد ، والتعدى بـ «إلى» وبـ «اللام» كلاهما وارد فى العربية تقول : سبقت لكذا وإلى كذا ....

ثم يخبر الله تبارك وتعالى عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه لايكلف نفساً إلا وسعها أى إلا ماتطيق حمله والقيام به ، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التى كتبها عليهم فى كتاب مسطور لايضيع منه شئ يعنى كتاب أعمالهم وهم لايظلمون أى لايخسون من الخير شيئاً وأما النسيان فإنه سبحانه وتعالى يعفو ويصفح عن كثير . يقول الحق تبارك وتعالى : «ولانكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لايظلمون» أى ماكان لله جلّ فى علاه أن يكلف عباده تكليفاً لايطيقونه فهو الرحيم بعباده لايكلف نفساً إلا وسعها ولايطالبها بما لاتطيق قدجعل الله لكل شئ قدراً وعلى هذا فالأعمال الطيبة التى قدموها مثبتة فى كتاب منشور لايغادر صغيرة ولاكبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولايظلم ربك أحدا ومعنى هذا بوضوح وجلاء أن على المرء المؤمن أن يبذل غاية وسعه فى طاعة ربه وماعليه من حرج بعد ذلك فالله عنده الكتاب المفصل فيه عمل السابق المسارع فى الخيرات والقربات والطاعات وفيه عمل المقتصد المقارب وفيه عمل مافى الوسع وغاية الطاقة وفيه عمل المفرط المقصر وماكان الله أن ينقص أحدا درجته ومنزلته فيعطيه دون مايستحق ولايظلم ربك أحداً .

*والله أعلى وأعلـم*